

التأصيل للمشروع الإسلامي: مجموعة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي؛ قبل 47 سنة في مدينة مشهد، المحاضرة الحادية والعشرون: انتصار النبوة (2)



التأصيل الإسلامي؛ انتصار النبوة (2).. المحاضرة الحادية والعشرون من سلسلة محاضرات ألقاها سماحة الإمام الخامنئي بمدينة مشهد قبل 46 سنة

انتصار النبوة (2)

الأربعاء 22 رمضان المبارك 1394 هجرية

17/7/1353 هجرية شمسية

ذكرت أمس أن وِعدَـدَ □□ لأنبيائه ورُسُلِه يحمل بشائر النصر. أي إنه سبحانه وعد أنبياءه وحاملي مسؤولية الأمانة بالنصر في هذه الحياة الدنيا على أعدائهم، وبالثواب والأجر في الآخرة.

وحول انتصار الأنبياء لخصّتُ الموضوع في محورين: محور انتصار الرهط الكريم من الأنبياء بمجموعهم، ومثلت لذلك بدور المعلمين الذين يبدأون بتعليم الطالب في مرحلته التمهيدية ثم يسلموه معلمين في المرحلة الابتدائية، وهؤلاء يسلمونه إلى معلمين في المرحلة الثانوية، وهكذا يتدرج ليبلغ أعلى المراحل الدراسية. معلم المرحلة التمهيدية لم يبلغ بالطالب مرحلة الكمال العلمي، لكنه أدى مهمته وقام بدوره المطلوب.

وأضرب لهذا مثالًا آخر طالما ذكرته من قبل. افترضوا أن حِملاً ثَقِيلاً يجب أن ننقله إلى نقطة تبعد 1000 متر، وهذا الحمل لا يطيق أحد أن ينقله إلى كل هذه المسافة، ولا يمكن أن يحمله مجموعة من الناس، بل لابد أن يحمله واحد. فماذا العمل؟ يأتي واحد من الأقوياء فيحمله إلى مسافة 10 أمتار، ثم يأتي آخر فينقله إلى مسافة 20 مترًا ويأتي الثالث والرابع والخامس... وكل واحد يقرّ به مسافة إلى أن يصل الحمل إلى النقطة المطلوبة. لقد أدّى كل واحد مسؤوليته في حمل هذه الرزمة، وإن لم يوصلها إلى هدفها المطلوب. لقد وفّى بمسؤوليته وإن ضحّى بنفسه وسط الطريق من أجل أداء المهمة. وهذا هو شأن الأنبياء (عليهم السلام)، كل منهم قطع شوطًا على طريق رقيّ البشرية. نوح (ع) قطع، خلال ألف سنة إلاّ خمسين عامًا من عمره، شوطًا وضحّى نفسه على طريق الدعوة، ثم جاء مَن بعده مَن قطع شوطًا آخر، ثم وصلت الرسالة إلى خاتم الأنبياء (ص) حيث بلغت الأمانة حدًا بإمكانها أن تواصل الطريق، إذ وصلت البشرية إلى سنّ البلوغ. من هنا فإن ركبَ الأنبياء بمجموعه من أولهم إلى خاتمهم قد حالفه التوفيق في أداء المهمة. ثم يصل الدور إلى آخر سفير إلهي وهو المهدي المنتظر (عليه السلام). وهو الذي يوصل الأمانة إلى آخر مراحلها المرسومة. إنه يواصل عمل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والنبي الخاتم والأئمة من أهل البيت. وبذلك تكتمل مسيرة الأنبياء وتتحقق آمالهم جميعًا. فلا فشل إذن لأنبياء □□ رغم كل ما واجهوه في حياتهم من عقبات ومن أذى ومصائب.

وثمة موضوع آخر تناولناه أمس وهو إن بعض الأنبياء، حققوا انتصارًا آخر إضافة إلى ما قطعوه من شوط على طريق رقيّ البشرية، استطاعوا أن يقيموا مجتمعًا على أساس الفكر التوحيدي. النموذج الواضح لذلك ما قام به نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام. فقد أقام في المدينة مجتمعًا ونظامًا وفق المشروع الإلهي. ومثله أيضًا عيسى عندما آمن به إمبراطور الروم، وهكذا إبراهيم وسليمان قد نجحوا في إقامة

غير أن بعض الأنبياء لم يحالفهم التوفيق في هذا المجال. ما هو السبب؟ السبب يعود كما ذكرنا أن رهطهم لم يكونوا على الدرجة المطلوبة من الإيمان والصبر. متى ما كان قوم النبي متحلّين بالإيمان والصبر فقد حققوا النصر على أعدائهم وكُتِبَ لهم الفتح، ذلك لأن دعوة الأنبياء تقوم على الحق، والحق منتصر لا محالة لأنه ينسجم مع فطرة الكون وطبيعته.

والآية التي تلونها أمس تؤكد على حتمية انتصار جبهة الحق: (وَلَقَدْ سَدَقْتَ كَلِمَاتُكَ لِعِبَادِنَا الْغَالِبِينَ # إِنَّهُمْ لَخَيْرٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ # وَإِنْ جُنَدَنَا لَهُمْ لَيُغَالِبُونَهُ) [1] لو شاهدتم أن دعاة كلمة الحق في مقطع زمني كانوا مغلوبين فاعلموا أنهم لم يكونوا جند الحق، أي لم تكن خصائص جند الحق متوفرة فيهم. حين تتوفر مواصفات جند الحق في مجتمع فالنصر حليفه، وإن لم تتوفر فالفشل قرينه.

ملخص حديثنا هو متى ما كان رهط النبي متحلّين بالإيمان التام وكانوا ثابتين في مواقفهم الحقّة فإنهم منتصرون لا محالة. ذكرت لكم أمس قول ذلك الرجل الذي كان يوصي المناضلين في الحركة الدستورية الإيرانية المعاصرة. كان يوصيهم بالنضال في كل حال، وإذا أيقنوا بالهزيمة ومع ذلك واصلوا فإنهم عندئذ سينتصرون. الآية الكريمة تقارب هذا المفهوم إذ تقول: (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْدُوا سِرًّا سُلُّوهُمُ وَأَنزَلُوهُمُ وَأَنزَلُوهُمُ فَادَّبُوهُمُ فَغَالِبُوهُمْ) [2]. حين تنسحب الطرق أمام السائرين إلى الحق، ويظنون أن الحق لم يعددهم بالنصر، ويرون تكالب الأعداء عليهم، ومع ذلك يحافظون على استقامتهم، فإن نصر الحق حليفهم.

الذين لا يعرفون منطق القرآن يقرأون التاريخ بشكل مشوّه. يرون أن الحركات الداعية إلى الحق قد فشلت. يرون استشهاد الثائر زيد بن علي [3] والثائر محمد بن عبد الله النفس الزكية [4]، وشهادة حسين بن علي الحسيني شهيد [5] فخ قرب المدينة المنورة مع كل أصحابه، ومقتل إبراهيم بن عبد الله [6] شقيق محمد النفس الزكية في العراق، فيستنجون من ذلك أن أية نهضة داعية للحق أمام الباطل مآلها الفشل. وذكرت أن هذه القراءة للتاريخ هي ما يرومه الطغاة والمتجبرون وما يستسيغونه ويروجون له، ويدعون إلى أن يكون الأمر على هذا النحو!!

لو رأينا أن زيد بن علي قد استشهد فلا يعني ذلك أن دعوة الحق مآلها إلى الهزيمة. بل يجب أن نفهم أن دعوة الحق بحاجة إلى سعي وجهد وعمل. لا يجوز لنا أن نفهم بأننا منتصرون لأننا فقط على حق، بل

لابد من السعي والمثابرة والمواصلة والصبر وبذل الجهد وتقديم التضحيات.

زيد بن علي كان على حق، والإمام الصادق(ع) أيّد قيامه في زمن هشام بن عبدالملك الأموي، لكن الذي حدث هو أن جمعاً من أصحابه قد تأثروا بالدعايات المسمومة لأعدائه فخذلوه وتركوه وحيداً. وهذا درس لنا يعلمنا أن الدعوة — وإن كانت على حق — فإنها قد تتعرض للهزيمة إذا خذلها أصحابها، وإذا لم يصدوا ويصبروا في سبيل هدفهم. أيُعقل أن نرى الدعوات التي لا تنسجم مع سنن الكون وطبيعة الإنسان تحقق انتصاراً بسبب ما يبذله دعايتها من جهود، أما دعوة الحق المدعومة بالصبر والمواصلة فإنها لا تحقق هدفها؟! ما هذا الكلام السخيف الباطل.

أذكر لكم في هذا الصدد خطبة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) ذكرتها في مناسبات متعددة حيث يقول:

«ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً ومضيّاً على اللّـمّ وصبراً على مضمّ الألم وجدّاً في جهاد العدو». ولقد كان الرجل منذّ والآخر من عدوّنا يتصاولان يتخالسان يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون. فلما رأى الله ﷻ صدقنا أنزل يعدوّنا الكبتَ وأنزل علينا النصر، ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتُم ما قام للدين عمود ولا اخضرّ للإيمان عود»[7].

الإمام يتحدث عن ذوبان المجاهدين مع رسول الله ﷺ في المبدأ، لا يابون في ذلك أن يقتلوا أقرب الناس إليهم إذا كانوا في جبهة المحاربين الكفار، ولا يزيدهم ذلك إلاّ الإيمان والتسليم والاستمرار في تحمل الصعاب والصبر على تحمل الآلام والجدّ في الجهاد. وقد كان الصراع مع عدوّنا صراع حياة أو موت. ولقد واصلنا الجهاد حتى رأى الله ﷻ صدقنا، فقمع سبحانه عدونا ومنّ علينا بالنصر.

ثم ها هو الإمام يواجه نفوساً مهزوزة ضعيفة، تخلق المبررات للابتعاد عن ساحة المواجهة، فيقسم لهم أننا لو كنا مثلكم ما استحكّم الدين ولا أينعت شجرة الإيمان.

ماذا نفهم من هذه الخطبة؟ إنه حديث أخي رسول الله ﷺ ونفسه. لماذا تقدم المسلمون في جهادهم مع رسول الله ﷺ، ولماذا تراجعوا في زمن أمير المؤمنين؟ يذكر الإمام سرّاً هذا الأمر، يقول: لقد صبرنا آنذاك وتركنا انشدادنا المادي فتقدّمنا، ولم تفعلوا ذلك فتأخرتم.

فالإيمان والصبر هما شرطا انتصار دعوة أنبياء الله ودعوة التوحيد. هذا هو ملخص حديثنا اليوم. نبدأ
بآيات هذه الجلسة:

(إِنَّمَا لَدُنَّ نَصْرُ رُسُلِنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُادُ # يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَا لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَا لَهُمْ
سُوءُ الدَّارِ) [8].

كلمة «إنما» واللام في «لَدُنَّ نَصْرُ» للتأكيد ولحتمية وقوع الأمر. والنصر لا يختص بالرسول بل يشمل
«الذين آمنوا» بدعوة الرسول في هذه الدنيا وفي الآخرة. ثمة آراء أخرى في تفسير «في الحياة الدنيا»
لكنني أرى بقرائن الآيات التالية أن المقصود منها هذه الحياة الدنيا المعاشة.

«وفي الآخرة» حيث يكون النصر على رؤوس الأشهاد، أمام الملائكة والأنبياء والصدّيقين. وفي ذلك اليوم
لا تقبل معذرة الظالمين بل يبوؤون باللعنة والعذاب. وليقدم القرآن شاهداً على نصره الأنبياء يذكر
مثلاً من النبي موسى (ع): (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
الْكِتَابَ # هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) والكتاب هو مجموعة ما قرّره الله سبحانه
لعباده، وعبارة «أورثنا بني إسرائيل الكتاب» تعني أنهم انتصروا على طغاة زمانهم، إذ لم يكونوا
قادرين أن يكونوا ورثة الكتاب مع وجود أولئك الطغاة.

(فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) تلتفت الآية بعد ذلك إلى النبي،
وتوصيه بالاستقامة مؤكدة «إن وعد الله حق» والوعد هو الذي ذكرته الآية من سورة الصافات: (وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ # إِنَّمَا لَهُمْ لَهْمٌ الْمَنصُورُونَ). النصر
حتمي بشرط الصبر، بشرط الاستقامة على الطريقة، ومواصلة هذا الكفاح المقدس.

وعبارة «واستغفر لذنبك» لا تعني أن النبي (ص) قد أذنب، فهو معصوم بنص الكتاب وحكم العقل، لكنها
الدعوة إلى ذكر الله واستغفاره والتسبيح بحمده أثناء الليل وأطراف النهار.

ونأتي إلى آيات سورة الأنبياء، وأوصيكم أن تمعنوا النظر في آيات هذه السورة. ففيها التأكيد
المتواصل على حتمية انتصار الأنبياء، وعلى سوء عاقبة أعدائهم. تذكر السورة قصة انتصار موسى
واندحار أعدائه، وقصة إبراهيم وهزيمة القوى المعاندة لدعوته، وقصة نوح وقصة سليمان.. تريد بذلك
بيان سنّة التاريخ في انتصار دعوة الحق وفشل القوى الرجعية المضادة لدعوة الأنبياء.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَاءً لَا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ # وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا سَلَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ # ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلًا كُنَّا لَهُمْ سُورًا فَيَنْزِلُنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [9].

في الآية مفردات تهمنا في هذا البحث: «صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ»، «أَنْجَيْنَاهُمْ»، «أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ». ثم في هذا الكتاب «ذِكْرُكُمْ» أي شرفكم وعزكم ومجدكم. وهذه المفردة أيضًا لها دلالة على مقصد الدين، وفيها حثٌ على الصبر والمواصلة لبلوغ ذلك المقصد.

ثم الآية الحادية عشرة تقول:

(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) كثيرة هي المجتمعات التي ظلمت وكان عاقبتها الإبادة والفناء، و«قصمنا» تشير إلى شدة ما نزل بهؤلاء من العذاب. وفي الآية إشارة إلى الإمداد الغيبي الإلهي الذي يأتي في اللحظات الحاسمة وفق سنن الكون، لا وفق ما يسود الذهنية الكسولة التي تنتظر أن تأتي يد الغيب فتقضي على الأعداء، دون مراعاة لسنن هذا الإمداد الغيبي.

هذه المجتمعات الظالمة في نظامها، وفي علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية أُبِيدت ثم جاء بعدها قوم آخرون.

(فَلَمَّا أَصَابُوا مَأْسَاتَنَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ # لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتِّرْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ). وحين رأوا العذاب بحسبهم ومشاهدتهم إذا هم يركضون منهزمين هاربين. ثم يأتيهم الخطاب على سبيل التهكم والسخرية يقول لهم: ارجعوا إلى القصور التي كنتم متنعمين فيها، وإلى البلدان التي كنتم تستعلون فيها وتتفاخرون، لعلكم تُسألون عما جرى عليكم وشاهدتموه.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ # فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ).

قالوا حين شاهدوا العذاب: لقد حان دمارنا وهلاكنا بسبب ظلمنا، وما زالوا يرددون هذا الاعتراف حتى أصبحوا مثل الزرع المحصود، وخدمت أنفاسهم.

ثم تأتي الآية التالية لتبين الأساس الفكري لهذا الذي نزل بالمجتمع الظالم. إنها تبين سبب انتصار الأنبياء وهزيمة أعدائهم.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ # لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَخِذَ لَهُمْ آيَةً وَسَخَذْنَا نَاهُ مِنْ لَدُنْ نَسَا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ).

خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ الْهُوَ وَالْعِبَثُ، نَعَمْ لَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لَفَعَلَ، وَلَكِنْ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا، لِأَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَيْسَ فِي عَمَلِهِ عِبَثٌ وَلَا لَهْوٌ. فَهُوَ سَبْحَانَهُ خَلَقَ الْكَوْنَ لِهَدْفٍ مُعَيَّنٍ، وَمَسِيرَةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَتَّجِهُ نَحْوَ ذَلِكَ الْهَدْفِ، وَهُوَ الْحَقُّ. وَهَذَا مَا لَمْ تَصْرَحْ بِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، بَلْ يَفْهَمُ مِنْهَا ذَلِكَ بِالتَّدْبِيرِ. وَالْقُرْآنُ لَا يَصْرَحُ غَالِبًا بِأُمُورٍ يُمْكِنُ فَهْمُهَا وَتَعَقُّلُهَا. وَبَعْدَهَا تَقُولُ الْآيَةُ:

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ). وَهَذِهِ سُنَّةُ الْكَوْنَ، أَنْ يَصِيرَ الْحَقُّ قَذِيفَةً تَقَعُ عَلَى رَأْسِ الْبَاطِلِ، فَيَنْتَصِرُ الْحَقُّ، وَيُزْهِقُ الْبَاطِلَ. عِنْدَئِذٍ سَيَلْحَقُ بِكُمْ الْهَلَاكُ لَمَّا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ.

ثم تتوالى الآيات لتعبّر بشكل جميل رائع عن هذه الحقائق، حقائق حتمية انتصار الحق على الباطل، ولكن فهم هذه الآيات بحاجة إلى الأُنس بالقرآن. وبعدها تتحدث الآيات عن خلق السماوات والأرض مؤكدة على أن رب العالمين الحاكم في الكون لا يبدؤ أن تشمل حاكميته حياة الإنسان والمجتمع، ومن يقف بوجه هذه الحقائق التي نادى بها الأنبياء فمصيرهم إلى الزوال.

وفي السورة أيضًا قصة إبراهيم ولوط في مواجهة جبهة الأعداء: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ # وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ # وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ # وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُتِّبَ لَنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) [10]

ففي هذه الآيات أيضًا تأكيد على انتصار النبوة وهزيمة أعدائهم.

والحمد لله رب العالمين.

[1] – الصافات/ 171 - 173

[2] – يوسف/ 110

[3] – ثار في خلافة هشام بن عبد الملك، ليردّ الحقّ إلى نصابه، تفرّق عنه أصحابه في المواجهة مع الجيش الأموي، وثبت هو وأصحابه في الحرب، ثم استشهد، وأثنى عليه الإمام الرضا (عليه السلام).

[4] – محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية من فضلاء الهاشمين، ثار على ظلم المنصور العباسي في المدينة، واستشهد وهو يقا تل جيش الخلافة.

[5] – الحسين بن علي، من أحفاد الإمام الحسن، ثار في المدينة ضد ظلم الخليفة العباسي، وحقق بعض الانتصار لكنه استشهد هو وأصحابه في منطقة (فخ) عند المواجهة مع جيش الخلافة العباسية. وروي عن الإمام الجواد إنه وصف حادثة فخ بأنها أفجع حادثة بعد وقعة كربلاء.

[6] – أخذ البيعة باسم أخيه، وثار بالبصرة فأصبحت تحت ولايته، ثم توجه إلى الكوفة، وفي الطريق اشتبك مع الجيش العباسي واستشهد.

[7] – نهج البلاغة، شرح صبحي الصالح، الخطبة 56

[8] – المؤمن/ 51 - 55

[9] – الأنبياء/ 7 - 18

[10] – الأنبياء/ 69 - 73